ظاهرة جديدة فى الأزهر

أمثلة ...

للأستاذ محمد محمد المدنى

ذكرت فى مقالى السابق أن « ظاهرة جديدة » قد ظهرت فى الأزهر . تلك الظاهرة هى أن أحاديث الإصلاح التى كانت حول الأزهر والأزهريين قد أصبحت الآن فى الأزهر وبين الأزهريين ، وانتقلت من ميدان الرسالة إلى ميادين أخرى فى مدرجات الكليات ومجالس الأساتذة ومكاتب الرؤساء ، وأنها لم تعد آمالا يُقتصر على ترديدها ، بل أهدافا يُرمى إليها ، ويقاس القرب والبعد من النجاح بمقياسها .

وقد استبشرت خيراً بهذه الظاهرة لأنها تدل على أن الأزهر قد تنبه واستفاق وأخذ يتساءل عن مصيره ، ولأنها تيسر التعاون المثمر بين الدعاة والمدعوين على تحقيق نهضته المرجوة ، وأخيراً لأنها صوت الشعب ، ولصوت الشعب فى الآذان دوىّ لا يستطيع أن يتجاهله المتجاهلون

وهل يعرف أحد كيف كفر المصريون فى طفولة التاريخ ؟

لقد فكروا فى محاربة السماء ، ليبددوا الوهم القائل بوجود السماء ، وأين السماء التى يقيم بها الله ، كما كان يقال ؟

مصر من صُنع الله ، والله لا يصنع غير الحقائق الأزلية ، وسيَشقى من يَشقى فى محاربة مصر ، ثم تبقى إلى الأبد وهى غرة فى جبين الوجود

ما أسعد من يرى مصر أول مرة وهو سليم القلب والوجدان !

إن رؤية مصر فى كل صباح وفى كل مساء وعلى طول السنين لم تزهدنا فى مرآها الجميل ، فكيف تكون الانفعالات النفسية فى صدر من يراها لأول عهده بقلبها الخفاق ؟

وأنا مع هذا أعانى فى رحابك يا وطنى ما أعانى ، فتى يخفّ شقائى بك وعتابى عليك ؟

أنا أطلب المستحيل إن طلبت فى رحابك الأمان كل الأمان ، لأنه حظ الأموات ، ونحن أحياء

لك يا وطنى أن تبدع ما تبدع من تهاويل الحقائق والأباطيل ، وعلينا أن نجارى روحك المبدع فنكون من أقطاب الشعر والبيان .

زكى مبارك

استبشرت خيراً بهذه الظاهرة ، وأحببت أن أسجلها على صفحات الرسالة كما هو دأبى ، لأنى أعتبر « الرسالة » ويعتبرها المخلصون جميعاً مجلة الإصلاح الدينى والأزهرى ولسان الدعوة إلى إنهاض هذا الشرق وإحياء تراثه المجيد تراث الدولة الإسلامية إبان عظمتها وفى عنفوان شبابها ، ولأنى أحسب أن تاريخ هذا الجهاد الشريف سيلتمس يوماً ما من مجلداتها فلا ينبغى أن يغيب عنها شىء منه دقّ أو جلّ لتكون الصورة كاملة واضحة لا نقص فيها ولا غموض !

واليوم أذكر « أمثلة » لتلك الظاهرة التى وصفتُ . أمثلة يعرفها كثير من الناس فى الأزهر وفى غير الأزهر . ولست أقول : ماذا أذكر منها وماذا أدع ، لأنها لم تعد سراً تنطوى عليه الجوانح ، وتغلّق دونه الأبواب ؛ ولكن أقول : ماذا أقدم منها وماذا أؤخر ؛ لأنها جميعاً أمثلة جديرة بأن تتقدم وبأن يلتفت الناس إليها ، ويتفهموا مغزاها ، ويدركوا عواقبها . وربما كان من الرأى أن ندع الآن جهود الطلاب ونشاطهم الذى لا يكل فى المناداة بتنفيذ خطة الإصلاح ، وما يعقدونه ويدعون إليه فى مدرجاتهم من اجتماعات أسبوعية يخطبون فيها ويتناظرون ، وما يكتبونه من رسائل مفعمة بحماسة الشباب وحرارة الإخلاص يتوجهون بها إلى أساتذتهم ورؤسائهم ، وما يبعثون من وفود إلى ولاة الأمور فى الحين بعد الحين ، لا هاتفة بالمال ، ولا ملتمسة الرزق ، ولكن هاتفة بالإصلاح راغبة فى العلم النافع الذى يصل الأزهر بالحياة . ربما كان من الأوفق أن نترك هذا ونحوه الآن ، وأن نلتمس ما نريد من الأمثلة فى محيط غير هذا المحيط ليعلم الناس أى مدى بلغته دعوة الإصلاح . وإنا لفاعلون :

* * *

(١) قالوا : إن طائفة من أبناء الأزهر المخلصين ، فيهم شيخ كبير يشغل منصباً هاماً من مناصب الدولة ، وله صلة وثيقة بالأزهر ، وفيهم وكيل لإحدى الكليات الأزهرية معروف بإخلاصه وغيرته وصداقته لفضيلة الأستاذ الأكبر ، وفيهم شاب مثقف بالثقافة الإنجليزية إلى جانب ثقافته الأزهرية — ضم هذه الطائفة مجلس مع فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، وكان مجلساً صافياً مباركا : فكروا فيه فى الأزهر ، وذكروا ما آلت إليه أحوال الدراسة وشئون العلم فى معاهده وكلياته وتخصصاته ، واستعادوا ذكريات ماضية ما زال الناس يذكرونها لفضيلة الأستاذ

الأكبر ، وقيل لفضيلته فى هذا المجلس : إن الناس ينتظرون منه أن يعيد عهد المراغى الذى كان على رأس الأزهر فى سنة ١٩٢٨ . ينتظرون منه أن يعيد عهد المراغى القوى الجرىء الذى كان يكتسح العقاب ، ولا يعبأ بالصعاب ، ويغار على فكرته الإصلاحية ويدافع عنها دفاع الأسد الهصور . وقيل له فى هذا المجلس أيضاً : إن الناس لا يريدون منه أكثر من أن ينفذ مذكرته الإصلاحية الكبرى بالروح التى وضعها بها ، بالقوة التى تمثلت فيها ، بالصراحة التى تتجلى فى كل سطر من سطورها ! وأذن فضيلة الأستاذ الأكبر لهذه الكلمات المخلصة التى تفيض عن قلوب للأزهر والدين مخلصة . أذن لهذه الكلمات ، وفتح لها قلبه ، واستعاد ذكرى ماضيه المجيد الذى تشير إليه ، ثم قطع على نفسه عهداً ليكونن كما يريدون فلا يأتى أول العام الدراسى « يريد فضيلته العام الماضى » حتى تبدو آثار ذلك لهم وللناس أجمعين !

وانطلقت البشرى بهذا الحديث فى مجالس الأزهريين وغير الأزهريين ، وقرت به عيون واطمأنت إليه قلوب ، وترقب الناس أول العام الدراسى متلهفين .

ولست أريد أن أعجل فأسأل : ماذا كان فى أول العام الدراسى ؟ وإنما أوثر الآن أن أستمر فى عرض المثل لهذه الظاهرة حتى لا أخرج عما رسمت لنفسى فى هذا المقال :

(٢) وقالوا أيضاً : إن طائفة من العلماء قد اجتمعت على سبيل المصادفة فى مكتب فضيلة الأستاذ الأكبر ، وكانت هذه الطائفة تضم بعض ذوى المناصب فى الأزهر ، وكان اجتماعها قبل ظهور فكرة الاحتفال بالعيد الألفى بزمن يسير ، وجرى الحديث فى شئون مختلفة ونواح شتى ، ثم جرى حول الأزهر وحالة الدراسة فى كلياته ومعاهده فأشار فضيلة الأستاذ الأكبر بأن يتناظر اثنان عيّنهما فى هذا الموضوع : « هل الأزهر القديم خير أو الأزهر الحديث ؟ » فقال أحدهما : ينبغى أولاً أن نحرر على طريقة الأزهريين موضع النقاش فى هذه المناظرة ، فنعرف من أين يبدأ الأزهر الحديث ؟ أيبدأ بعهد الإمام الأول المغفور له الشيخ محمد عبده ، أم يبدأ بعهد الإمام الثانى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ؟ فإن كانت الأولى فالأزهر الحديث خير من الأزهر القديم ، وإن كانت الأخرى فإلى أن يخرّج الأزهر الحديث أمثال المراغى وعبد المجيد سليم ومن إليهما يظل الأزهر القديم خيراً من الأزهر الحديث !

ووافقه صاحبه على هذا الرأى . فأما فضيلة الأستاذ الأكبر فلم يفته ، وهو الرجل الذكى الألمعى ، ما تقصد إليه هذه الإشارة فقال : لقد مضى على الأزهر ألف عام كان فيها بين التقدم والتأخر ، وتقلبت عليه فيها نظم كثيرة ، فإذا كانت الأعوام العشرة الأخيرة ليست من أعوام النجاح فى تاريخه الطويل فهى أعوام تجربة ، فأسقطوها من حساب هذا التاريخ ، واعتبروها كذلك ، وانظروا فى تعديل هذا النظام على وجه تصلح به شئون الأزهر . قال قائلهم : لا . ليس السر فيما يشكو منه الناس راجعاً إلى النظام ، فإن النظام فى ذاته صالح وليس فيه عيب جوهرى ، ولكن هذا النظام لم ينل حظه من التنفيذ كما ينبغى أن ينال . وهذا هو السر فى أنه لم يثمر ثمراته التى كان الناس يرجونها منه . قال فضيلة الأستاذ الأكبر : نعم هذا صحيح!

ولا شك أن هذين المثلين يدلان على ما عنيت بوصفه من تلك الظاهرة الجديدة التي بدت فى الأزهر ، وفى استطاعتى أن أمثل بكثير من نوعهما ، مما يدور فى المجالس الخاصة ، ويتناقل الناس الأحاديث عنه ، ولكنى أورد مثالاً ثالثاً هو أجلى فى بيان تلك الظاهرة وأدنى أن يعد من آثارها :

(٣) ذلك أن رجلاً مسئولاً من رجال الأزهر هو فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء دعا فى يوم من أيام شهر فبراير الماضى إلى محاضرة يلقيها فى دار كلية الشريعة موضوعها « السياسة التوجيهية العلمية فى الأزهر » ولست أريد الآن أن ألخص للرسالة هذه المحاضرة ، ولا أن أنقل شيئاً منها ، ولكنى أريد أن أصف للقراء كيف أقبل الناس على سماع هذه المحاضرة وكيف استقبلوها عند ما سمعوها ، ليعلموا أن عيون الأزهريين قد أصبحت متطلعة ، وأن آذانهم قد أصبحت مصغية ، وأن نفوسهم قد أصبحت مستعدة .

فأما إقبال الناس على هذه المحاضرة فقد كان رائعاً : إنه لم يكد عنوانها ينشر على الناس مقترناً باسم صاحبها حتى جعلوا يتساءلون : ما ذا عساه يقول فى هذا الموضوع . وكيف يذكر حقائقه ، ويعرض للناس وقائعه ؟ تساءلوا عن ذلك لأن العنوان وما عرف به صاحب المحاضرة من حب للصراحة وجهر بالحق قد أثار فى نفوسهم معانى شتى هم بها يشعرون . ولبوا دعوة الداعى خفافاً سراعاً حتى بلغت عدتهم قريباً من أربعة آلاف بين علماء وطلاب ، واكتظت بهم مدرجات الكلية وحجراتها